مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
المجلد:06./ العـدد:01/جوان (2022)، ص438/445

صراع الأنساق الثقافية في خطابات المستشرقين الإسبان (نسق الذات والآخر أنموذجاً)

The clash of cultural patterns in the discourses of Spanish orientalists (the pattern of the self and the other as a model)

زيطاري أحلام*
zitari.ahlem@cuniv-tissemsilt.dz
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

أ.د. شريف سعاد
cherif.souad@cuniv-tissemsilt.dz
جامعة تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/06/27 تاريخ القبول: 2022/05/08 تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص:
تهدف هذه الورقة البحثيّة إلى إبراز صراع الأنساق الثقافيّة في خطابات المستشرقين الإسبان، والتي اخترنا منها نسق الذّات والآخر للدّراسة والبحث، وأهمّ ما تصبوا إليه هذه الدّراسة هو مدى تأثير ثقافة الآخر العربي الأندلسي على ذات المستشرق الإسباني، ضمن مجال نقد الأنساق الثّقافية المضمرة داخل خطاب المستشرقين الإسبان.
وقد اخترنا هذه المدونة لتلائمها مع موضوع الدراسة، ذلك أن الاستشراق الإسباني مخزون ثقافي منفتح على مختلف الأبعاد الفكرية والمعرفية والاجتماعية، ويتجلى فيه الصراع بين الحضارة الاسلامية ونظيرتها الغربية، لنختم بجملة من النتائج أهمّها أن خطاب المستشرقين يُبرز الكثير من الأنساق الثّقافية أهمّها الصدام بين الذّات والآخر.
كلمات مفتاحية: النقد الثقافي، الأنساق، الاستشراق الإسباني، الذات والآخر، الأندلس.

Abstract:
This research paper aims to highlight the conflict of cultural patterns in the discourses of the Spanish Orientalists, from which we chose "the self and the other" to study and research, and the most important goal of this study is the extent to which the culture of the Andalusian Arab has on the Spanish Orientalist. within the field of criticism of implicit cultural patterns in the a discourse of Spanish orientalists,
and for this we have chosen this blog to suit the topics of the study. Indeed, Spanish Orientalism is an entity open to various intellectual, ethical, cultural and social dimensions, and a conflict between civilisations. The most important results are that the orientalists' discourse highlights many cultural patterns, the most important of which is a conflict between the self and the other.
Keywords: *Cultural criticism; systems; Spanish Orientalism; the self and the other; Andalusia.*

*المؤلف المرسل.

مقدمة

يُعتبر النقد الثقافي نشاط إنساني يحاول دراسة الثقافة، ولكن ليس بالبحث عن هذه الأخيرة، وانما محاولته الكشف عن أنساقها المضمرة، وتفكيك مشكلاتها المعقّدة، ويركز على فكرة نقد المركزيّات المعرفية والفكرية بما تحمله من أنساق، حيث تتنوع هذه الأنساق بين ظاهرة ومضمرة، ويُعد النقد الثقافي من أهمّ الظّواهر الأدبيّة التي رافقتنا بعد الحداثة في مجال الأدب والنقد، ويرتكز هذا النّمط من الدّراسات على مفهوم الثّقافة بشكلها الواسع وما يرتبط بها في شتى المجالات، ومن أهمّ القضايا التي اهتمّ بها النقد الثقافي أدب ما بعد الكولونياليّة.

ويُعد الاستشراق من أبرز الاهتمامات لكونه موضوعا ثقافياً وحضاريا متشعّباً، فقد اهتمّ بما وراء الخطاب الظّاهري ليصل إلى مضمرات الخطاب، وفي ضوء هاته الجدليات الشائكة يظلّ الاستشراق نابضا بالتّوتر، وحسّ القلق، والصّراع، والتّساؤل بفعل تمحوره حول قضيّة الذّات والآخر، ممّا يجعلها قضيّة قابلة للقراءة والتّأويل والتّفكيك من خلال رؤية كاشفة تقود بالضّرورة إلى النقد الثّقافي.

وعلى هذا جاءت دراستنا الموسومة بـ:**"صراع الأنساق الثّقافية في خطابات المستشرقين الإسبان (نسق الأنا والآخر أنموذجا)"**، وقد اخترنا المدرسة الاستشراقيّة الإسبانية لتجلي الظاهرة فيها، ذلك للاحتكاك المباشر بين الاسبان وأهل الأندلس خلال تواجد العرب على شبه الجزيرة الليبيرية ثمانية قرون، ومن أجل مقاربة ناجعة لموضوع صراع الأنساق الثّقافية في خطابات المستشرقين الإسبان، يقتضي موضوع البحث الإجابة عن الإشكالية الآتية:

ما مفهوم النّسق المضمر وما سبل الكشف عنه في الخطاب الاستشراقي الإسباني؟ وما مفهوم الاستشراق؟ وما طبيعة علاقة نشأته بالمدرسة الاستشراقية الإسبانية؟ وماهي أهمّ الأنساق المتصارعة التي حملتها خطابات أولئك المستشرقون الإسبان؟

1- النّقد الثّقافي:

النقد الثقافي "هو فعالية تضمّ عديد الاتجاهات الفلسفيّة والنّقدية والعلميّة، حيث يرجع بداية التّأصيل الفعلي للنّقد الثّقافي، إلى سنة **1964**م، وهو التّاريخ الذي يحيل إلى مركز برمنجهام للدّراسات الثّقافية المعاصرة برئاسة ريتشارد هوجارت **Richard Hoggart** ومساعده ستيوارت هول ال **Stuart Hall** سنة 1964م، لتأسيس هذا النّقد في جانبيه النّظري والإجرائي"[1]، فالنقد الثقافي ليس خاصة بمجال دون آخر مادامت الثقافة جزء من الحياة اليومية للإنسان.

ومن المعلوم أن "مصطلح الثّقافة عام وعائم وفضفاض في دلالته اللّغوية والاصطلاحية، ويختلف من حقل معرفي إلى آخر، وهو من المفاهيم العلمية في الثّقافيتين: الغربية والعربية على حد سواء، فالثّقافة بطابعها المعنوي والرّوحاني تختلف مدلولاتها من البنيويّة إلى الأنثروبولوجيا وما بعد البنيويّة، وتندرج الثّقافة مجاليا ضمن الحضارة التي تنقسم إلى شقين: النّسق المادي والنّصي، ويسمّى بالتكنولوجيا، والنّسق المعنوي والأخلاقي والإبداعي، ويسمّى بالثّقافة"[2]، فالثقافة تشمل كل مناحي الحياة وهي أسلوب للتعايش مع متغيرات العصر.

فالنّقد الثّقافي "نتاج تداخل مناهجي: مناهج سياقية (التّاريخي، الاجتماعي، النّفسي) ثم مناهج نسقية (البنيوية والسيميائية بالأساس) ثم الأنثروبولوجيا والاقتصاد ليتبلور النّقد الثّقافي وتتشكل قاعدته بظهور الاتجاهات المابعد حداثية كالتّفكيك والنّقد النّسوي، والنّقد الكولونيالي فالنّقد الثّقافي يوسّع من مجال الاشتغال ليشمل ميادين وحقول معرفيّة أوسع وأشمل من المجالات التي تستهدفها الدّراسات الثّقافية كالدّراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية، كذلك يستند النّقد الثّقافي إلى مناهج واتجاهات نقديّة علميّة في جانبيه النّظري والإجرائي (المناهج السيّاقية والنّسقية والاتجاهات ما بعد الحداثية)"[3]، وهذا التنوع المعرفي والتداخل المنهج جعل من هذا المنهج أكثر سلاسة في تطبيقاته على النصوص الابداعية في عصورها المختلفة.

2- القراءة النسقية:

تحاول القراءة النّسقية "قراءة النّصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التّاريخية والثّقافية، حيث تتضمّن النّصوص في بناها العميقة أنساقا مضمرة ومخاتلة قادرة على التّمنع، ولا يمكن كشف دلالاتها التّامية في المنجز الأدبي إلا بإنجاز تصوّر كلي حول طبيعة البنى الثّقافية للمجتمع، وتكوين جهاز معرفي إبستمولوجي من لدى المؤول الثّقافي لفك شيفرات

المحتملات النّسقية"[4]، فهذه القراءة لا تكتفي بما يقدمه النص في طياته بل تستعين بالقارئ كمستقبل ومؤول رئيسي لهذه الثقافة والناشر الفعلي لها.

فالدّراسات الثّقافية أفرزتها "ممارسات نقديّة رائدة في الفكر الإنساني، وهذا ليس مستغربا وليس قدحا أن نقول إن الدّراسات الثّقافية أخذت أهمّ استراتيجياتها من نظريات قائمة، وأفادت منها كثيرا في دراسة ظواهر كانت خارج منظور تلك النّظريات، من هذه الحقيقة يستطيع المرء أن يقول إن الدّراسات الثّقافية عالجت قضايا ملحة في فضاءات ثقافية مختلفة، كالعلاقة الثّقافة والتّحيزات، كما كرست استراتيجياتها للكشف عن التّواطؤ الأيديولوجي بين مختلف فضاءات الثّقافة، وشحذت الوعي بالعلاقة بين طبيعة المؤسسة والثّقافة، وكذلك العلاقة بين المؤسسة وفرضياتها الخفية"[5]، ويحضرنا هنا مفهوم رؤيا العالم والذي أراد من خلاله لوكاتش الوقوف عن معركة الوعي بين الطبقة البرجوازية التي تملك الثقافة والطبقة البوليتارية التي تشكل النمو الاقتصادي.

3- مفهوم الأنساق المضمرة:

النّسق المعرفي يتجلى أمام القارئ بمستويات مختلفة منها الظاهر ومنها المضمر وعليه أن يفك شفرة الأول ليصل إلى فحوى الثاني مستندا في ذلك على مرجعية ثقافية واسعة تخوله الغوص في مضمرات النصوص، "كما أنّه يتّضح من خلال الدّلالة النّسقية التي تكون منغرسة في النّصوص وهي إنتاج الثّقافة، ويكون ظهور النّسق على شكل أقنعة متنوعة وهذه الأنساق هي انساق تاريخية أزليّة مثبّتة في اللاّشعور الجمعي"[6].

3-1- مفهوم النّسق الثقافي:

يُعدّ النّسق الثقافي عنصرا مفصليا في مجال النّقد الثّقافي و"يعود إلى تشكّله نتيجة حقلين معرفيين هما النّقد الحديث والأنثروبولوجيا، والأنساق الثّقافية بمثابة قوانين وتشريعات أرضية من صنع الإنسان، في مقابل التّعاليم السّماوية التي أنزلها الله تعالى في الأديان، ووضعها الإنسان لضبط نفسه ولتصريف أموره في الحياة وهي تعبّر عن تصوير الإنسان القديم لما ينبغي أن تكون عليه الحياة، والأنساق الثّقافية قابلة للتّطور شأنها شأن كل عناصر الحياة"[7]. بمعنى أن النّسق الثّقافي عبارة عن عناصر معرفية، وفنية، وقانونية، وأخلاقية، وعقدية، متقاطعة يتفاعل بعضها مع بعضها الآخر.

3-2-الذّات والآخر (The Other) ودورهم في دعم الاستشراق:

جاء في لسان العرب أن كلمة "أنا اسم مكنّى وهو للمتكلم وحده، وإنما بني على الفتح فرقاً بينه وبين أنّ التي هي حرف ناصب للفعل أما الألف الأخيرة، أنا هي بيان الحركة في الموقف"[8]، كما جاء في منجد اللغة و الأدب و العلوم أن "أنا" ضمير رفع للمتكلم و الأنانة قولك أنا"[9].

الآخر في أبسط صوره هو مثيل أو نقيض «الذات» أو «الأنا»؛ وقد ساد كمصطلح في دراسات الخطاب، سواء الاستعماري (الكولونيالي) أو ما بعد الاستعماري وكل ما يستثمر أطروحاتها مثل النّقد النّسوي والدّراسات الثّقافية والاستشراق، وقد شاع المصطلح في الفلسفة الفرنسية المعاصرة خاصة عند **جان بول سارتر Jean Paul Sartre** ، **وميشيل فوكوMichel Foucault** ، **وجاك لاكانJean Lacan** ، **وإيمانويل ليفيناس Emmanuel Levinas** ، وغيرهم، "ورغم سهولة المصطلح وصعوبة بلورة معالمه بوضوح، إلّا أنه «تصنيف» استبعادي يقتضي إقصاء كل ما لا ينتمي إلى نظام فرد أو جماعة أو مؤسسة، سواء كان النّظام فيها اجتماعية أو أخلاقية أو سياسية أو ثقافية، ولهذا فهو مفهوم مهم في آليات الأيديولوجيا، ولعل سمة «الآخر» المائزة هي تجسيده ليس فقط كل ما هو غريب غير مألوف، أو ما هو الغيري بالنّسبة للذّات أو الثّقافة ككل، بل أيضا كل ما يهدد الوحدة والصفاء، وبهذه الخصائص امتد مفهوم الغيرية» هذا إلى فضاءات مختلفة، مثل التّحليل النّفسي والفلسفة الوجودية والظاهراتية، وآليّات تحليل الخطاب الاستعماري والتحديق ونظرية الفيلم، والنّقد النّسوي والدّراسات الثّقافية، ومصادر السّيادة والهيمنة سواء كانت الهيمنة على موضوع لغوي أو موضوع مفهوماتي"[10].

ولا شكّ أن مفهوم الآخر يتأسس على مفهوم "الجوهرة؛ أي أن ثمّة سمة أساسية جوهرية تحدّد الذّات، مما يجعل الآخر مختلفا عنها، وبالتّالي لا ينتمي إلى نظامها، أيا كان، فإذا كان الشّرق كما في معالجة إدوارد سعيد للاستشراق، هو الآخر بالنّسبة إلى الغرب، فإن الغرب سيرصد كل السّمات التي تختلف بها الشّرق عن الغرب بوصفها سمات دوليّة وربما غير آدمية، لكن المفارقة التي تتجسد دائما ضمن خطاب الذّات والآخر هي مفارقة الجوهر

نفسه أي أن السّمة (أو السّمات المائزة التي تجعل الشرق شرقا لا علاقة لها بالكيفية التي يتعامل بها الغرب آخره الشرق؛ مفارقة الأيديولوجيا عموما)"[11]، ونحن بدورنا نقف عند هذه الثّنائية "الأنا" و"الآخر"، و أوجه الصّدام الثّقافي الذي عكسته خطابات المستشرقين الإسبان، الذي بلور العلاقة بين "الأنا والآخر" (الشرق والغرب) إلى علاقة جدليّة معمقة، لهذا يتوجب علينا طرح السؤال: لماذا ترتبط قضية الاستشراق بإشكالية الأنا والآخر؟، وما الدّور الذي لعبه الاستشراق في دعم هاته الثّنائية؟

4- مفهوم الإستشراق (Orientalism) :

يشير هذا المصطلح في مدلوله الأساسي أو المتداول إلى الاهتمام العلمي أو الأكاديمي بالثقافات الشرقية، أو الآسيوية تحديدا بما في ذلك الشرقين الأقصى والأدنى بما يتضمنه ذلك الاهتمام من دراسة وتحقيق وترجمة، ومن ناحية أخرى تشير العبارة إلى توجهات في الفنون الغربية سواء التشكيلي منها أو الأدبي استلهم، الشرق بمقتضاها ووظف فنيا[12].

5- نشأة الاستشراق، والمدرسة الاستشراقية الإسبانية:

بعد أن خرج العرب من جزيرتهم وأسسوا إمبراطوريتهم الواسعة، وكونوا تلك الدّولة الموحدة المترامية الأطراف الممتدّة من إسبانيا والمحيط الأطلسي غرباً إلى حدود الصّين شرقا، وبعد أن تكونت العربية الإسلامية من مصادر أصلية كالقرآن والشّعر والنّثر، وتطورت لتشمل ثقافة إنسانية أعم،كان لهذه الحضارة مكانة وقيمة كبيرة، فكان إعجاب الغربيين بالحضارة الإسلامية عظيما خاصة الإسبان، حيث أرسلت الدول الأوروبية الرهبان والقساوسة لطلب العلم والمعرفة في الجامعات العربية المنتشرة في ربوع إسبانيا وخاصة جامعة قرطبة.

وإن كانت الحرب والسّلاح هما الوسيلتان اللّتان اتخذهما الغرب للتعبير عن حقدهم على الإسلام، فإنهم استخدموا سلاحا آخر لا يقل أهمية وخطورة، وهو سلاح الكلمة المكتوبة الموجهة، وقد تميزت كل الجهود التّي بذلها في فترة الحروب الصليبية، بأنها اتسمت بالطابع الديني حيث دعا إليها رجال الدين وتعهدها الباباوات، فكانت العلاقة بين الطرفين في هذه الفترة تتسم بالعداء، وكانت المؤلفات تصف المسلمين بالكفرة وتلصق بهم أبشع الصور والأفعال[13]، فكان الاستشراق في بدايته أداة من أدوات التّبشير؛ حيث سعى الرهبان والقساوسة إلى تعلم اللّغة العربية والتطلع على الدراسات الإسلامية، بغية فهم هذا الدين ثم نقضه من أساسه ورد أتباعه إلى ديانتهم، وكانت صقلية وطليطلة وإسبانيا هي أكبر المنافذ التي استخدمها الرهبان لتعلم العلوم العربية، رغم أن الفائدة بقيت خاصة بين طبقة المثقفين ولم تمس عامة الناس، ومع ذلك بقي العلمان متجاوران وكانت معرفة كل واحد بالآخر ضئيلة للغاية فكانوا يعتبرون المسلم وثني.

بعد أن حدث الانشقاق بين الكنيسة والإمبراطورية وحدث تغيير في النظم الأوروبية عادت الدعوات التي تنادي بالعودة للشرق، لكن الحل العسكري لم يجد آذاناً صاغية، فكان الحل السلمي هو البديل وكانت أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو التبشير لتحقيق الآمال الضائعة، فانكبوا يدرسون تراثه الذي نقل إليهم عن طريق صقلية والأندلس وعن طريق الحروب الصليبية، فنقله من اللّغة العربية واللّغات الشرقية، وخصصوا كراسٍ مستقلة في كبرى الجامعات لهذا التخصص، وهذا ما أدى إلى ظهر تيارات استشراقية منها الرافض للثقافة الأندلسي[14].

6- رواد المدرسة الاستشراقية الإسبانية الرافضين للثقافة العربية الأندلسية:

- فرانسيسكو خافيير سيمونيت Francisco Javier Simonet .
- بوليكاربو مينغوتي إي ترازونا Policarpo Mengote e Trazona
-خوسيه أنطونيو كوندي.José Antonio Conde
-كلوديو سانشير ألبرس Claudio Sancher Albers .

وقد برزت العديد من الصّراعات والأنساق الثقافية في خطاباتهم، منها ما كان واضحا وصريحا ومنها ما كان مضمرًا، فظهر بوعي و بلا وعي، ولقد حاولنا رصد بعضٍ منها.

7- صراع نسق (الذات والآخر):

الثّقافة هي تلك السمات والخصائص التي تميز شعبًا عن آخر وفق مجموعة من الأصول والجذور التاريخية والدينية والأدبية والتربوية والاقتصادية والمعرفية والعادات والتقاليد التي تجعل لشعب هوية خاصة في خارطة الثقافة العالمية

والغيرية منطقا إنسانياً قوامه العلاقة بين الذات والآخر، بواسطة أدوار متشابكة ومتكاملة ومتعاكسة[15]، ولتحديد الذات بمختلف أبعاده لابد من وجود الآخر، ومن بين القضايا التي تربط الذات بالآخر وجود علاقة ثقافية بين الطرفين، وهذا ما تبناه النقد الثقافي وما ركزت عليه دراستنا في تفكيك الخطاب الاستشراقي الإسباني، فقد أخذت كتابات المستشرق الإسباني عن الآخر العربي الأندلسي صراعات ثقافية وتجاذبات فكرية ونظرية متغايرة ومتباينة، سواء على مستوى حضور الحواضن الثقافية أو على مستوى الأنساق الثقافية.

7-1- الذات والآخر/ الصراع التاريخي الحضاري:

وفي خضم الصّراع الذي وُلد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ولد الخطاب الاستشراقي الإسباني الذي أدى دورًا مهما، لذلك على الباحث في النقد الثقافي الكشف عنه وإظهاره، كونه يحمل أنساق ثقافية ووظيفة إيديولوجية فالإيديولوجيات يمكن أن تشتغل لصالح أنساق ثقافية معينة، ضد أخرى؛ لأن الأنساق الثقافية نظام متواصلٌ ومتوارث في ذات الإسباني تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق المحاكاة أو التكرار أو الممارسة بشكل لا شعوري. فالمستشرق الإسباني يحمل قبل تأليفه لخطاب أو كتاب خلفيات إيديولوجية معينة في ذهنه تبناها لاشعوريا وتوارثها عبر الأجيال عن طريق الممارسة والتكرار، لذلك فهو يحاول تمرير أنساق ثقافية مضمرة في كتاباته، تعلي من هاته الظاهر وتجعلها مركزاً وتنقص من الآخر المضمر-خادماً لهذه الإيديولوجية التي يتبناها هذا المستشرق.

إلا أنه يستطيع أن يمرر لا شعوريا هذه الحضارة الأندلسية في خطاباته ليوصلها إلى العالم، ولهذا لا يمكن فهم الخطاب الاستشراقي دون ربطه بالتجربة التاريخية التي حدثت في شبه الجزيرة الإيبيرية بين الإسبان والعرب الأندلسيين، حيث يبرز المستشرق الإسباني ذاته بواسطة خطابه وعلاقته بتاريخ الجماعة التي ينتمي إليها وهي جماعة الإسبان، وبين الآخر الأندلسي الذين ظل مهمشا في النصوص، وقد كان الحديث عنه بدل أن يتحدث هو عن نفسه ويفصح عن رغباته.

ولقد سعى **سيمونيت بوليكاربو مينغوتي إي ترازونا**(**policarpo mingote y tarazona**) في كتابه "تاريخ إسبانيا" (**Historia de Espaoa**) لتحقيق هدف سام بالنسبة إليه وهو توسيع الإمبراطورية والحضارة الإسبانية وذلك بطمس الهوية الأندلسية العربية. ولذلك استعمل الوقائعية التاريخية وتحدث عن الفتح الإسلامي لإسبانيا من أجل أداء حركة إمبريالية ووصف الفاتحين بالغزاة؛ لأنها لم تؤدي إلى ما كان يهدف إليه ويتمناه حيث وصفهم بأنهم خليط من القبائل الإفريقية والآسيوية والفرس والمصريين والنوبيين والبربر والعرب الذين كانت لهم السيادة لأنهم العنصر الأكثر ذكاءً وخيالاً، وهو هنا ـ ودون وعي منه ـ وصف العرب بأنهم شعبٌ ذكي. فالقارئ لهذا الخط يجده يكرس لمجد الحضارة الأندلسية وإبداع الآخر العربي الأندلسي بطريقة لاشعورية، **فبوليكاربو Policarpo** ينتمي إلى أولئك المستشرقين الذين كانوا يرون أن العرب أعجبوا بحضارة إسبانيا وثقافتها وبفنونها الجميلة، وعملوا على اقتباسها واستفادوا منها في بناء ثقافتهم.

وهذه المناحي وضمن مستوى نسقي مضمر تصب في صالح ولع ذات المستشرق الإسباني بحضارة الآخر الأندلسي وما كتب عن الحضارة الأندلسية والآخر العربي، هو نسقا تباشر الذات برصده وهو الخلفية الثقافية التي استقى منها تجربته وبنى قاعدته الإبداعية عليها؛ بمعنى الحقائق التاريخية الممزوجة بخصوصيات واقع الآخر الأندلسي والمخلفات الحضارية من قصور وجنان التي عاش المستشرق في كنفها، وبذلك تتخذ الذات الاستشراقية من الآخر الأندلسي مناصًا لها بناءً على أساس نسقي يعكس انفتاحا نقديا أتاح للأنا أن تحدد نقاط التلاقي التاريخية وأسس الثقافية مع الآخر من دون أن يكون في ذلك أي تبعية أو تضادية، بل هي استجابة ثقافية أنتجت جدلية نصية بين الذات والآخر عن وعي وقصدية.

7-2- الذات والآخر /صراع الثقافة والهوية:

وإذا كانت العلاقة بين الذّات والآخر قد إتّضحت في خطاب المستشرقين الإسبان الرّافضين للآخر العربي الأندلسي، منذ أن وعى المستشرق الإسباني نفسه ذاتًا تتحدث متقمصة دور العربي ومتلبسة كينونة الإسباني، فإن هذا ما طبع الخطاب الاستشراقي الإسباني الرافض للآخر الأندلسي بالذاتية فشكلت الذات هيأته وتمركزت في منتصفه بلا منازع وغدت بوصفها هوية استعلائية جغرافياً، وعرقياً، وعقلياً، وحضارياً وهذا ما سماه **عابد محمّد الجابري**

بالإقصاء[16]، ويقول خافيير سيميونيت في كتابه تاريخ المستعربين: "إن هدفنا كتابة تاريخ هؤلاء الإسبان الذين أخضعوا للإسلام والذين تمكنوا دون معاهدات تحميهم ، وعلى مدى قرون طويلة من الاحتفاظ بدينهم وبروحهم القومية، وبالثقافة العريقة لإسبانيا الرومانية والقوطية والنصرانية، وقاوموا بكل جلد وصلابة الكثير من التعذيب والاضطهاد والمطاردة وعظيم المصائب، وهم هؤلاء الذين من أجل ذلك كله استحقوا عاطر الثناء والمديح والإطراء، وأن ترفع الأيدي بالتحية والتقدير لهؤلاء الأبطال الأساتذة الشهداء الذين ساهموا بما قدموه لصياغة وتقدم إسبانيا الجديدة "[17] حتى لا يكون مجال للآخر العربي الأندلسي أن يحضر مساوياً أو نداً أو غريماً، بل يحق له إذا حضر أن يكون مغلوباً مهمشاً أو ثانوياً أو تابعاً.

وقد ظل هذا الخطاب الاستشراقي الإسباني الرافض سائراً من دون دحض أو انقلاب، فالأنا دوما صوت إسباني مركزي، والآخر مغلوب وهامشي، ومن بين التناقضات التي وقع فيها أيضا ذهابه تارة إلى "أن ما بلغته الحضارة الإسلامية في الأندلس كان بفضل امتزاج دماء العنصرين الإسلامي والنصراني عن طريق الزواج، وادعائه أحيانا أخرى بأن النصاري المستعربين حافظوا على نقاء عرقهم ودمائهم، بحيث لم يختلطوا بالعنصر المسلم وأيضا في مسألة إصراره على بربرية ووحشية العرب، فإنه ذهب إلى أن الإسبانية والعربية تبادلتا التأثير أي أخذتا من بعضها وقد أعجب جمهور المستعربين بها لكونها من أغنى اللغات وأكملها وأعمقها ، متناسيا أنه لا يمكن أن يكون لبرابرة ومتوحشين مثل هذه اللغة الفصيحة والبليغة"[18]، وقد غلبت على أفكارهم رفع وتفوق الإسباني بالمقابل حط العربي الأندلسي بشتى أنواع العنصرية العرقية وبالإمبريالية وما إليها وسار الخطاب الاستشراقي ضمن هذا المسار النسقي، فصوت المستشرق متلبس بالذاتية والمركزية، متفاعلة مع رفض ثقافة الآخر الأندلسي بوعي وقصدية، وبلا وعي ودون قصد.

7-3- الذات والآخر/صراع الإيديولوجي والديني:

ومن هؤلاء المستشرق الإسباني **خافيير سيميونيث Francisco Javier Simonet*** ، الذي يعتبر أن التجربة الأندلسية كانت سبباً في انكسار سيرورة إسبانيا ويعدون الفتح الإسلامي نقمةً، أدى إلى عقم إسبانيا ثمانية قرون، وكان له بصمة في الاستشراق الإسباني كما تحمل كتاباته رفض الثقافة الأندلسية وعدها ثقافة دخيلة وغريبة عن الثقافة الإسبانية، وأغلب وصفه للمفكرين والأدباء والفقهاء والعلماء الأندلسيين بالجمود والتحجر وضيق التفكير، وقد قام بدراسة له بعنوان "تأثير أهل إسبانيا الأصليين في الحضارة الأندلسية" في مجلة **مدينة الله Ciudad de dios** ، سنة 1870"[19]، وكذلك قد قام **"سيمونيت"Simonet** بجمع الكلمات الإيبرية واللاتينية التي كان يتداولها العرب بالأندلس، لإثبات تأثر مسلمي الأندلس بالحضارة اللاتينية، ولعل هذه الحاضنة الثقافية التي انطلق منها هذا المستشرق في وضع عنوان لدراسته مكنته من أن يصنع لنفسه توازيا نسقياً متناغماً مع الآخر وإقراره بحضارة العرب الأندلسية بإسبانيا، وكل ذلك تم على نحو خفي غير قصدي ولا معلن.

ومن مؤلفات **سيميونيث** لبعث أفكاره القومية كتابه الموسوم بعنوان ب**"تاريخ المستعربين في إسبانيا"« la historia de los mozarabes de espana 1897-1903»** وقد سعى سيميونيث بواسطة هذا الكتاب إلى محاولة فصل التاريخ الثقافي لفئة المستعربين عن سياقه الأندلسي (الإسباني-العربي –الإسباني)، وقد تميزت آراء سيميونيث بالتناقض إذ يعترف بأن النصارى تمتعوا في ظل الحكم الإسلامي بكافة حرياتهم ، وأن المسلمين احترموا الكنائس في الأراضي المفتوحة، ولئن فر بعض القساوسة أمام جيش المسلمين، فإنهم رجعوا إليها بعدما شهدوه من تسامح المسلمين وبأنهم لا يعتدون على أماكن العبادة كانت نصرانية أم يهودية، بل إن الكنائس النصرانية عرفت ازدهاراً بعد الفتح الإسلامي مع قس يدعى شيشليبا الذي تميز بحرصه على سلامة عقيدة رعيته من الكاثوليكية "[20] ووفق ما أشار إليه **الغذامي** عن مصطلح التورية، من خلال ما صرّح به عن الازدواجية حول بعدين دلالين، أحدهما قريب والآخر بعيد، فإن الآخر الأندلسي بالنسبة لذات المستشرق **خافيير سيميونيث** مجرد نظير ثقافي جدلي، يتم نفي ثقافته أو تقليل من قيمته بنسخ الخطاب المضاد له، كمعنى ظاهراً والمقصود أبعد من ما هو ظاهر، والمضمر هو محاولة الرفع من قيمة وثقافة المجتمع الإسباني، ومحاولة إبراز إبداع العنصر الإسباني بنسب الحضارة الأندلسية له وذلك لوضع قيمة له واسم بين الحضارات المجاورة في أوروبا وغيرها من العالم[21].

- خاتمة:

نخلص بعد هذه الورقة البحثية التي تتعلق بصراع الأنساق الثقافية في خطابات المستشرقين الإسبان، والتي تشكل ميدانا خصباً للدارسين والباحثين للكشف عن الخلفيات الثقافية، التي تتضمنها هذه الخطابات الغنية بالرموز والإيحاءات الدلالية إلى أن:

- الاستشراق خطاب يبرز الكثير من التناقضات التي تعتري الأنساق الثقافية.
- الكتابة سلاح فكري اتخذه المستشرق الإسباني وسيلة لفرض ذاته وتعويض ما عجز عنه مقابل الحضارة الأندلسية.
- الخطابات الاستشراقية تضمن صراعا بين المركز والهامش، وبين ذات المستشرق الإسباني الذي يحاول فرض هيمنه وازاء ثقافة الآخر العربي الأندلسي.
- وعليه فإن هذا المستشرق الإسباني ودون قصد منه، وعن طريقه رفض الآخر الأندلسي، نفض الغبار عن الحضارة الأندلسية وتراثها، ودرسه دراسة علمية معمقة، حيث برز الأندلسي أكثر عن طريق هاته الكتابة، وعرف من خلالها في إسبانيا خاصة، وأوروبا عامة.

-. قائمة الإحالات:

1. فريد مناصرية، النقد الثقافي وسؤال النسق – مفاهيم وتطبيقات-المثقف للنشر والتوزيع، ط1، 2020، ص25.
2. ينظر: عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي للنشر، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ط2، 2001، ص14.
3. المرجع نفسه، ص 26.
4. يوسف عليمات، النسق الثقافي: قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،2009،ص11
5. ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب.ط3،ص148.
6. نادر كاظم، تمثيلات الآخر، السود في المتخيل العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط 1، سنة2004، ص 9.
7. ينظر: أحمد يوسف عبد الفتاح : لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الإختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، بيروت، ط 1،2010، ص 151
8. ابن منظور. لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مج 1، 1999، ص62.
9. لويس معلوف، المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، لبنان ط1، ص19.
10. ميجان الرويلي المرجع السابق، ص21.
11. المرجع نفسه، ص22.
12. المرجع نفسه، ص33.
13. ينظر: ساسي سالم الحاج، لقد الخطاب الاستشراقي، ج1، دار المدار الإسلامي، بيروت،سنة2002، ص42.
14. ينظر: المرجع نفسه، ص49.
15. ينظر: سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، ط3، سنة 2000، ص 14.
16. ينظر: مُحَمَّد عابد الجابري، مسألة الهوية والاختلاف. العروبة .الغرب. الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 2012، ص128.

* فرانسيشكو خافيير سيميونيت 1829-1897، مستشرق إسباني عنى خصوصا بتاريخ غرناطة، وهو معادي كل ماله صلة بالأندلس.

17. مُحَمَّد عبد الحميد عيسى صقر ، الفتح الإسلامي في الأندلس، مكتبة عين شمس، القاهرة، ص 299- 300.
18. مُحَمَّد عبد الواحد العسري ، الإسلام في تصورات في الإستشراق الإسباني ،دار المدار الإسلامي، ص 215. 214 .
19. **Ciudad de dios.vo 14.1870.p.p.5. 14/92-101**
20. مصطفى الشعكة، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين،ط1، بيروت، ص325.
21. ينظر: عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط 3، 2005، ص70.

- قائمة المصادر والمراجع

1. ابن منظور. لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مج 1، 1999.
2. أحمد يوسف عبد الفتاح : لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الإختلاف، الدار العربية للعلوم، الجزائر، بيروت، ط 1،2010.
3. ساسي سالم الحاج، لقد الخطاب الاستشراقي، ج1، دار المدار الإسلامي، بيروت،سنة2002.
4. سمير الخليل، فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب، ط 3، سنة 2000.
5. عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط 3، 2005.
6. عبد الله الغذامي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي للنشر، المملكة المغربية، الدار البيضاء، ط2، 2001.
7. فريد مناصرية، النقد الثقافي وسؤال النسق – مفاهيم وتطبيقات-المثقف للنشر والتوزيع، ط1، 2020.
8. لويس معلوف، المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، لبنان ط1.
9. مُحَمَّد عابد الجابري، مسألة الهوية والاختلاف. العروبة .الغرب. الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 2012.
10. مُحَمَّد عبد الحميد عيسى صقر، الفتح الإسلامي في الأندلس، مكتبة عين شمس، القاهرة.
11. مُحَمَّد عبد الواحد العسري، الإسلام في تصورات في الإستشراق الإسباني ،دار المدار الإسلامي.
12. مصطفى الشعكة، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين،ط1، بيروت.
13. ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب.ط3.
14. نادر كاظم، تمثيلات الآخر، السود في المتخيل العربي، دار الفارس للنشر والتوزيع، طبعة 1، سنة 2004.
15. يوسف عليمات، النسق الثقافي: قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن،2009.

- قائمة المراجع الأجنبية

16. **Ciudad de dios.vo 14.1870.p.p.5. 14/92-101**